



أقصصة من بول فبسي (١)

جنون ...

للأستاذ دريني خشبة

—>>><<<—

كان الصبح يتنفس عليلاً في الأفق الشرق، وكان القبروف
ينفث دخانه فيتمدد سحاباً طويلاً داكناً فوق نابولي والقري
المجاورة، وكان البحر النائم ملقياً رأسه الجبار على أوأذى
سورنتو، حيث انتشر الصيادون فوق الشاطيء وفي الماء وفوق
الزوارق يعملون ويدأبون، لا فرق بين شبهم وشبابهم، وكانت
النساء يرفرفن فوق الأسطح القرية كالأعلام المُنشرة يؤدين
أعمال الصباح ... وكان الكل مبتهجاً سعيداً ولاسيا الفتي البحار
أنطونيو الذي وقف في زورقه يملأ ناظره من جمال الطبيعة
المتبرجة فوق الشاطيء الإيطالي الفتان

لقد كان أنطونيو سعيداً هذا الصباح، لأن كثيرين من

(١) من أدباء بلاطملك مكسليان ملك بافاريا سنة ١٨٥٤ ومن أبرع
كتاب الأفايس

٢ - اليوسفي

ويوسفي أصفر أنيق نحية الصديق للصديق
ونخلة العشي للعشي جردته من قشره الرقيق
فجاء مثل الركب الخليق

٣ - الورد بعصر

تنظر صبح النجم والصبح يفر لدى كبرياء الخطب والعزم أكبر
في الثبل يزكو بين لين وشدّة فكالورد يستهدى وكالورد بعصر

أهل سورنتو يذهبون في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع إلى
قرية كاپري ليبيعوا في سوقها ويشترى ... ولم يكن سعيداً لكثرة
زبائنه فقط، بل كان سعيداً لشيء آخر ... شيء عزيز ... شيء
هو حلم القلوب، وغذاء النفوس، ومسبح الخيال، ومسترد الحلم ..
وأقبل قس من سورنتو، فجعل يذلف حتى وقف على
السيف أمام أنطونيو ... ثم قفز فكان في الزورق، والفتي مع
ذاك في شغل عنه ... وعن الدنيا جميعاً
— أنطونيو يا بني! ماذا يمنحك أن تبجر قبل أن تشتد
الشمس؟

— لا شيء أيها الأب ... سنبجر حالاً!

ولكن أنطونيو كان لا يبيح في الشاطيء بمينيه،
يرسلها وراء أيكة ... وكان القس القلق يرى في نظراته الحائرة
طيف حبيب تائه ... في عالم مجهول ... فيعذره!!
ثم بدت فتاة جعلت تخطر بين دوح السنديان وتلوح بمنديلها
فوق الشاطيء، فهفا قلب أنطونيو، وطفح وجهه بالبشر المفاجيء
وارتجفت يده، وشاع فيه صرح عجيب، فسأله القس!

— وبمذ يا أنطونيو؟! ألا تبجر بنا يا بني؟

— سنبجر ... سنبجر أيها الأب ...

وكانت الفتاة تتوالت فوق النوى خفيفة رشيقة، فلما اقتربت

هب الملاحون الخبثاء يمززون ويلمزون، وإن فرض عليهم
وجود القس احتشاماً كان يغيظهم ويحنقهم ... ثم ركبت في فلك
أنطونيو، ووقفت قريباً من القس الذي حياها قائلاً:

— لوريلا! عمى صباحاً يا صغيرتي! أتصحبيننا إلى

كاپري؟

— أجل يا أبانا

— أحسب أن ليس معك تقود من أنطونيو؟ أوه! إن

أنطونيو شاب طيب ... وهو بلا ريب لا ينتظر من أمثالك

- أجمراً ... بل بالعكس ، لقد فرش لك قميصه ، ولم يفعل ذلك من أجلي ... ولكن أين عشرة قسيسين مثل ، في فتاة ريانة مثلك ، في نظر هؤلاء الشباب ! ! وماذا تحملين إلى كاري يا لوريللا ؟ »
- وقبل أن تجيبه الفتاة مدت يدها إلى قميص أنطونيو ففتحته ، ثم جلست وقالت تجيب الأب :
- ثوب ، وحرير ، ورغيف أيها الأب ... الثوب لامرأة .
- تصنع الأشرطة في أنا كاري ! والحرير لامرأة أخرى ... والرغيف لي ... أنبلغ به ...
- والحرير من غزلتك أنت ؟
- أجل أيها السيد
- أذكر أنك كنت تصنعين الأشرطة بيديك ؟ أليس كذلك ؟
- بلى أيها الأب ، ولكن أرى قد تقدمت بها السن ، ثم هي مريضة ، بل شبه مقعدة ، ونحن فقراء ... فمن لنا بنول نشتره وليس معنا من ثمنه شيء ؟
- أمك ؟ ! وأسفاه ! لقد أذكر أنني رأيتها في عيد الفصح الماضي !
- أجل ... ولكنها مريضة اليوم ... وهي تقاسى من زواج الربيع ما لا تقاسيه في فصل غيره ... أضف إلى ذلك زلازل القزوف ورجفاته ...
- صلي من أجلها يا فتاتي ، واضرعي إلى المذراء أن تكلاًها ... ولكن ... خبريني يا لوريللا ... لقد سمعت الملاحين الخبيثاء يلزونك وأنت مقبلة ، فيقولون لك (هلى أيتها المريية ...) وهو نداء لا يليق بمسيحية تقية مثلك ، فاسبب هذا ؟
- إنهم طالما يدعونني كذلك ، مستهزئين بي ، لأنني لا أشركهم في رقصهم وغنائهم وسائر عرבותهم ... وهذا بالرغم من مسالتي لهم دائماً ...
- وأغضت الفتاة ، وجعلت تبحث في خضرة المياه بمينها المحزوتين ، كأنها راعها ما عرف القس من أمرها وأمر هؤلاء الملاحين ...
- وساد الصمت ، وكان أنطونيو قد دفع الفلك في البحر فاحتواها الماء ، وصارت سورنتو تتمدد وتبتعد ، وتسطع منازلها البيضاء في خضرة حدائق البرتقال ، وقهوة القزوف تغذف بمثل ما في صدر لوريللا من حميم ... ثم سألتها القس :
- ألم تعودى تعلمين من أمر الصور شيئاً يا لوريللا ؟ لقد سمعت أنه ذهب إليك صرة ليعمل لك صورة ، وأنتك رفضت فليته ؟
- ولم يريد أن يصورني أنا من دون بنات سورنتو ؟ إن منهن من هي أروع مني جالا وأكثر فتنة ! فلم يصورني أنا ؟
- لقد ذكرت أنني أنه ربما تصباني بها ، أو أتلّف بها بروحي ، ومن يدري فربما أضمر بها قتلي ؟ من يدري ؟ !
- يا صغيرتي لا تصدق هذه الخزعبلات ! ألا تؤمنين بالله ؟
- ألا تتقين أنك دائماً في حفظه ؟ وأن شمرة واحدة منك لن يصيبها أذى إلا باذنه ؟ فإذا يصنع واحد من بني الوقي بصورة في يده إن أراد بك سوءاً ؟ ... على أنني أعرف أنه كان مغرماً بك ، مشغوقاً بجمالك ... وأنه لذلك أراد الزواج منك ، لكنك أبيت ! ولست أدري لماذا ... إن الناس كلهم يمدحونه ويطرون أخلاقه ... ولقد كان في وسعه أن يتشلّكم مما تقاسون من ضيق وشظف ، ويريحكم من عناء ما تنسجون من أجل الحياة ...
- تالله يا أبانا لقد كان فقرنا سبب إحجامنا ... إذ كيف يطبق ما نحن فيه من عوز ، وما تقاسى أرى من مرض ؟ لقد كنا نصير كلاً عليه ... هذا ... وأنا ؟ كيف أعيش في كنفه ذليلة بفقرى ويئسني ؟ هل أنا سينوره ؟ ماذا يقول لرفاقه حين يفسون داره ؟ إنه يهرب مني حينذاك ... أو ... يذوب حياء
- كيف تقولين هذا يا لوريللا ؟ إن الرجل الذي يحب لا يبالي ما تقولين ... على أنه كان يستطيع أن يهاجر إلى بلد بعيد فيعيش في جنة بفته ، ويسعد بك إلى الأبد ... أوه ! ... لقد كان رسولا من السماء بمشته لا تقاؤم فطردهوه !
- لا علينا من ذلك أيها الأب ! إنني من جهتي ... لا أرغب في الزواج مطلقاً ...
- تعنين أنك نذرت أن تكوني راهبة ؟
- ... ؟ ...
- عنيدة ! ما أحسبك تزيدين أنك إلا مرضاً يا لوريللا ؟
- بأى حق ترفضين هذه اليد الكريمة التي بسطها لك السماء لتخلصك ولتقذ حياة والدتك ؟
- آه ! إن لدى سيياً ... يبد أنني لا أبتنى أن أبوح به لأحد !
- حتى ولا لي ؟ ولا لي أنا ... موضع اعتراف المنذاري

جميعاً؟ أنا يا لوريللا الذى طالما كنت صديقك ومفزع الأحزان
عن فؤادك؟
— ...؟ ...

— لا ، لا يا صغيرتى ! إنك لا تعرفين من هذه الحياة
إلا قليلاً ، فأزجى عن فؤادك ما ينوء به ... ثم إنى أعدك أن
أكون أول مؤيد لك إن كنت على حق ...
وقبل أن نجيبه لوريللا ، أرسلت عينها ناحية الملاح الشاب
الذى كان موزع الفكر بين الحبيبة وبين الشراع وبين البحر ...
والذى كان يحجب عينيه بطرف من وفاء رأسه وهو مع ذاك مصغ
لحديث القس

ثم تكلمت لوريللا فذكرت للحبر الجليل ما يفزعها من
الزواج ، لأنها تحفظ بذكريات مشجية مما كان يحدث بين أبيها
من نضال وشقاق ... « حتى لقد كان لا يتورع أبى من مديده
إلى أبى بالضرب البرح الذى كان سبب ما تقاسيه اليوم من
الأمراض ... أبدأ لا أنسى هذه الوحشية أبها الأب ، تلك
الوحشية التى أسبها وحشية الزواج ، والتى من أجلها أوترأن
أظل عانساً إلى الأبد ... ثم أنا لا أعرف قيمة هذه العلاقة التى
تنشئونها بين رجل وامرأة ، فيظل الرجل قوياً وتظل المرأة
ضعيفة ، يقبلها إذا أراد ، ويتجهم لها إن شاء ، ويلبم بها كاتلب
الرياح بالريشة التى لا حول لها ... أوه ! أقسم لك أبها الأب ،
لو أننى كنت فى مقام والدتى لعرفت كيف أذود وحشية زوجى
وأدفع أذاه ! والله لأسقيته ضعف ما كان يحاول أن يسقىنى !
مسكينته يا أبى ! لقد كنت ضعيفة فلم تحاول أن تدافى عن
نفسك ، وسيت ضرب أبى إياك حجة ، والسكوت عن هذا
الضرب طاعة ... »

ويحاول القس أن يخفف من ثقمتها على حياة الزوجية ،
ولكن محاولاته تذهب مع الريح ؛ ويذكر لها أن الأزواج ليسوا
سواسية ، وأنهم ليسوا جميعاً قساة القلوب غلاظ الأكباد كما
تظن ، وأن الشاب المصور الذى أحبها كان له قلب رءوف رحيم
يحكم فنه وميوله الروحية العالية ... ولكن لوريللا تدفع عظامه
فى ثورة جامحة وتقمه على الرجال لا تعرف التسليم
ويسمع أنطونيو هذا كله ... فيقف من الفتاة على مثل قوهمة
فيزوف !

ومتع النهار ، وألقت الفلك حراسها عند كبرى ، ونزل
أنطونيو فى الماء ليحمل القس إلى الشاطئ ، ثم عاد ليحمل
لوريللا ...

— لا ... لن يحملنى زجبل ما حيت !
ثم حسرت عن ساقها ... الساقين الجيلتين المرصيتين ...
ونزلت إلى الماء السميد ، حاملة حزمها ... وتبعها أنطونيو ...
وفوق كتفه سلة من البرتقال سبيهما فى سوق كبرى
ورجها القس أن تذكره عند أمها ، وأن تذكر لها أنه ربما
زارها غداً غد ... ثم أخذ طريقه إلى كبرى ... وأخذت
طريقها إلى أنا كبرى ...

وكانت فى نفسها أشياء .. وكانت فى نفس أنطونيو أشياء ..
فلما بعد القس التفتت فجأة لترى إلى أنطونيو فى الفلك .. فما كان
أشد حياءها حين رآته خلفها ، وعيناه مسمرتان فى عينها !
وباع أنطونيو برتقاله ... وعاد فى ساعة إلى الفلك ... وجلس
فيه على أحر من الجمر ينتظر عودة لوريللا !

وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى أقبلت الفتاة تنهذى كالعطاة
وقد نهت ثديها واهترا ، ولبت فوقهما شياطين البحر الأبيض ..
فلما رآها أنطونيو وثب فى الفلك ، ونشر الشراع ، ورفع المرسة
واستمد للاقلاع بصاحته من فوره

وجلست لوريللا فى طرف المركب ، وولت ظهرها للملاح
الشاب ، بحيث لم يكن يستطيع أن يرى إلا صورة جانبية
(بروفيل) من وجهها الجميل ، مطبوعة فى السماء الصافية مرة ،
وفى الماء الساكن مرة أخرى

لقد كان نصف فيها الجليل الخمرى الأحمر ، وخدها الأسيل
الوردي ، ووجتها الناصمة ذات الزغب ، وعنقها الطويل الشفاف ،
لقد كان ذلك يثير فى قلب أنطونيو سنوفاً من العذاب الخائف ،
والآلم المذعور ... لا عهد له بمثلا أبداً ...

ولم يقلع أنطونيو ... وأخرجت الفتاة رغبتها وأخذت
تنغدى ...

وأخرج الملاح برتقالات قدمها لها وقال : « لا تحسبى أننى
ادخرتها لك ... بل ... لقد سقطت من غير قصد من السلة قبل
أن تنزل إلى البر ، فان شئت فكليها ...

— بل كليها أنت ... فانلخز القفار يكفينى !

— من يدري؟ هل اطلمت النيب؟ ثم ما أنت وهذا؟
 — ما أنا وهذا؟ ألم تدركي بمد؟ إني أخشى أن تكوني من
 نصيب غيري! إن هذا يخرج بي عن صوابي؛ إنه يصيبني بالجنون
 — وإذا أصبت بالجنون، فأنا وذاك؟ هل وعدتك بشيء
 فأنت تبجن إذا أخلفتك موعدي؟ أي حق لك علي؟
 — أي حق؟ حق عظيم يا لوريللا... حق ليس سكا على
 ورق، بل هو هنا... في صفحة قلبي... حق يجعلك لي من
 دون العالمين... لن أطيق أن أراك ذاهبة إلى قداس مع سواي!
 الموت دون ذلك...
 — أنت حر تقول ما تريد... ولن تخيفني تهديداتك...
 ثم أنا حرة كذلك...
 — وبنيتي ألا تتأدى في هذا النى... إني لن أسمح لقتاة
 نبوس عتيقة مثلك أن تمزني هذا العذاب الطويل... هذا غير
 محتمل... أنت هنا في قبضتي... ويجب أن تنفذ مشيئتي!
 — إذا استطعت أن تفعل شيئاً فدونك!... أريد أن
 تقتلني... إن... خالفتك؟
 — أنا لا أحب أن أصنع شيئاً فاتي علي نصفه، وأترك
 النصف الآخر... إن هذا البحر الزاخر اللجي يسعنا جميعاً،
 ولن يضيق بي وبك... يجب أن تفر في أعماقه معاً... أما... وأنت
 ثم انقض عليها وأمسك بذراعها، وحاول أن يحملها ليهبط
 معها إلى البحر... يد أنه صرخ فجأة... لأن لوريللا كانت في
 هذه اللحظة كاللبوة المغضبة... فقد فتحت قفا الجليل الفان
 ثم أهوت على عيني أنطونيو، فقضمت أنامله، وانبجس الدم الحار
 النائر متفجراً كأنه يتدفق من ينبوع...
 — ها... أرايت؟ ها قد امتثلت لأوامرك كما ادعيت...
 والآن... ربما ما تزال تحسب أنني في قبضتك... أنظر!
 ثم قفزت في البحر الهائج الجياش... وغاصت في الماء...
 وصرخ أنطونيو... وأرسل عينيه الفزوعتين تبحثان في
 اللج، وتضربان في ثبابا الموج... ولكنه لم ير شيئاً... ولما التفت
 إلى الخلف، وجد الفتاة تسبح نحو الشاطئ، وهي تكافح الباب
 المتلاطم، وتركب بجسمها الأهيف الجليل فوق أعراف الموج
 المضطرب
 — لوريللا... لوريللا... قفي... عودي إلى الفلك...

— إنهن خير ما يؤكل في هذا الحر القاطظ، لاسيما وقد
 مشيت كثيراً!
 — لقد شربت في الطريق، وهذا حسبي!
 — إذن... خذها لو الدتك!
 — عندنا برتقال كثير، وسنشترى غيره إن نفذ!
 — وماذا لو أخذت هذه البرتقالات، وقدمتها إليها مع
 — تسليماتي؟
 — وكيف، وهي لا تعرفك؟
 — خبرها عني!
 — أخبرها عنك وأنا لا أعرفك؟
 لقد كذبت لوريللا في هذه الدجوى... فلقد كانت تعرف
 أنطونيو، وكان أول هذه المعرفة في يوم كان بينهما حببها المصور
 هواه عند شاطئ البحر
 ياله من يوم هائل ذلك اليوم! لقد لمح نفر من الملاحين
 الجيبين الصغيرين يتناجيان فتناحروا بهما، ثم أنشأوا يحذفونهما
 بمصوات... لكن أنطونيو الشجاع، لم يرصه ذلك السلك
 الميب الشائن من رفاقه، فانبرى لهم، ودفع عن الجيبين أذاهم...
 فكيف مع ذلك لا تعرفه لوريللا؟
 ثم جلسا صامتين... وبدأ للملاح الماشق أن يحمر من فوره
 قبل أن يصل أحد فيتلف عليه تديره الذي خطر له في مثل البرق
 وتمعد أنطونيو أن يدخل بالفلك في صميم البحر... ليكون
 بعيداً من الشاطئ ما استطاع... فلما حصل ثمة... أنزل الشراع
 فجأة، وترك الفلك تتقاذفها الأمواج... ثم توجه نحوها وهتف
 بها يقول:
 — أنت لا تعرفيني؟ إذن يجب أن أضع حداً لبعثك بي!
 وينبغي أن أطلعك على ما أترع به قلبي بسببك... إني لا أطيق
 أن أصبر على طول سدك يا لوريللا...
 — ماذا تعني؟ أي صد وأى عبث؟ أتعني أنك تحبني؟
 إذن فأعلم أنني لن أحبك، ولن أقبل أن أتحذك بعبلاً؛ لا أنت
 ولا أحداً غيرك، أسمعتم؟
 — كلام ترسلينه في الهواء! غرور وخيلاء! أليس لك
 قلب؟ لم جئت إلى هذه الدنيا إذن؟ إنك أنثى، أليس كذلك؟
 فلم خلقت أنثى؟ إنك لا بد متزوجة يوماً ما... ولو برغمك!

إن المسافة طويلة... نحن من الشاطئ على ثلاثة فراسخ بأختاه...
لكن الفتاة أصمت أذنيها... وانطلقت تسبح...
وفي سرعة البرق، نشر أنطونيو شراعه، ولوى عنان
الزورق الكبير، وذهب في إثرها... وجعل يرجوها ويتوسل
إليها... لكنها مضت في سبيلها في البحر سراً...
— لوزيللا... وماذا تصنعين إذا بلغت الشاطئ؟ إننا على

مسيرة ساعات من سورتو... عشرون ميلاً بأختاه!!
ولم تمر لوزيللا التفاتاً... بل ذهبت تدرع البحر في غير
مبالاة... فلما كانت على سبحة أو سبختين من الشاطئ، لوت
رأسها نحو الغلك، وقالت لأنطونيو مستهزئة: «أما وقد وصلت
فسأركب... وحسبي أن أرىك أنني لست في قبضتك!!»
وتعلقت في جبال السفينة، ووثبت كالغزالة، وراحت تعصر الماء
من ملابسها، فانهزم من تضاعفها غزيراً نجاجاً

ونظرت إلى يديه، فوجدت الدم ما يزال يتدفق من يده،
فزعت مندبل رأسها، وألقته إليه قائلة: «خذ... أربط بهذا
جرحك» لكن أنطونيو لم يفعل، بل ظل يرنو إليها بمبتين
جائعتين ظامئتين معجبتين... فتقدمت هي، وربطت يده، ثم
جلست بجانبه، وتناولت أحد المجذافين، وراحت تعمل به في
الماء، لأن الريح كان قد تغير هبوباً... وحدجته لوزيللا
وقالت له: «وسترى أيضاً أنني أعرف منك بصناعتك... هلم
فاعمل كما تعمل إن استطعت...»

وكانت أم الملاح الشاب تنتظره عند المرفأ، فلما رأت ما به
سأله ماذا أصابه.. لكنه تضحك، وقال إن مسأراً خدشه..
ونزلت لوزيللا... وهتفت بالملاح أنها ستعوده، وستأنيه
بمخاشن وأعشاب لها نفع عظيم في مثل جرحه

ولم يتم أنطونيو برغم ضعفه الشديد وإعيائه المضمي، ولم
يخف ألمه برغم المساء الساخن الذي أعدته له أمه، والذي نضجه
على الجرح مساراً.. بل ظل الدم يتدفق.. وظل الفتى يتقلب..
وظل مع ذلك يفكر في لوزيللا

وكان ينظر إلى مندبلها كأنه قنية غالية، أو نفحة من السماء
أو تذكارة عزيز لهذه المركة التي انهزم فيها في عرض البحر...
وفي... معممات الحب!

وفي الوقت الذي قطع أنطونيو فيه كل أمل من لقاء لوزيللا...
وفي هدأة النفس الساكن... دخلت لوزيللا الجميلة الهيفاء...
لوزيللا... الحلم الجميل الساحر... تحمل الأعشاب التي وعدت
أن تأتي بها للمعالجة الجرح، فقال لها أنطونيو:
— آه... مندبلك، لقد أتيت تفتقدن مندبلك

لكنها لم تجب... بل بحثت عن وعاء، وتناولت يد أنطونيو
ففتكت الرباط عن الجرح، وكان قد تورم قليلاً، فنسلته بماء
عصرت فيه من أعشابها، ثم وضعت من الأعشاب عليه
مالاً يؤذي، وربطت اليد المحمومة الساخنة برباط نظيف تلي
أحضرته معها... فها هي إلا لحظة حتى زال ألم أنطونيو... فاقت
باسماً وهو يقول:

— أشكرك يا لوزيللا... وإذا كان لي أن أطلب شيئاً،
فهو أن تغفري لي!

— بل أنا الذي أطلب الصفح يا أنطونيو... ففي الحق...
لقد غالت معك في هذه الوسائل المنيفة... والآن... ما بال
هذه العضة؟!!

— لقد صنعت ما صنعت دفاعاً عن نفسك... وأنا ما أزال
أشكرك!

— وثيء آخر يا أنطونيو، ألا تدري أنك قد فقدت
(جاركتك) في البحر وفيها تقودك... أجور المسافرين...
و نحن... البرتقال!

— هذا لا يهم يا لوزيللا!

— بل... لقد كنت أوتر أن أعوضك عنها لو استطعت...
على أنني لا أملك إلا هذا الصليب الفضي... خذه... لقد تركه
لي المصور يوم أن جاء يخطبني

— وما أنا وهدية من خطيبك؟ إنني لن أمسه أبداً

— لا تحسب أنني أقدمه هدية بدوري... لا... بل خذه
فإنه ينفعك!

— بل خذيه وانصرفي مشكورة

وأخذت المندبل والصليب، ثم وضعتهما في السلة الصغيرة
التي حملت فيها الأعشاب... وحينما حاولت أن تنهض من جانب
أنطونيو... نظرت إليه... وإذا عبرات حرار تتحدر فوق
خدنها نجاة... وينظر إليها الملاح النائم... فينهض كالظلم...
»